قراءة في مفاهيم السيميائيات السردية

الأستاذة كريمة بلخامسة
جامعـــة بجايـــة/ الجزائر

تقـــديم:

سنحاول في هذا البحث استقراء مفاهيم السيميائية السردية عند الباحثين العرب وسيتم التركيز على أعمال الباحث المغربي" سعيد بنكراد " في كتابه" مدخل إلى السيميائية السردية، وأبحاث رشيد بن مالك في الجزائر من خلال كتابه" البنية السردية في النظرية السيميائية" وكذا أبحاث" محمد الناصر العجيّمي" في كتابه" في الخطاب السردي- نظرية قريماس-"، والباحث عبد المجيد نوسي في كتابه" التحليل السيميائي للخطاب الروائي" وسنتبين من خلالهم مدى تجاوبهم مع الطرح الغريماسي في تحديده للسيميائيات السردية ومتابعة فعل الترجمة والاختلافات التي نلاحظها في ترجمتهم لبعض المفاهيم وإظهار انعكاساتها على مستوى النصوص التطبيقية.

وسيتسنى لنا بهذا معرفة مدى استيعاب الباحث العربي للمنظومة الاصطلاحية لسيميائيات مدرسة باريس، وهل أثّرت الترجمة والتناقضات التي تطرحها- في بعض الأحيان سلبا في فهم المجال النظري للسيميائيات والانتقال إلى مستوى التطبيق، لنصل في الأخير إلى معرفة مدى استثمار الباحث العربي- بعد كل هذه السنوات- للمفاهيم السيميائية وهل تجاوبت هذه الآليات الإجرائية مع النصوص الإبداعية العربية المختلفة على الرغم من اختلاف الفلسفة الفكرية والأيديولوجية السياسية التي أسّست لظهورها والخلفية الفكرية والثقافية العربية التي أطّرت هذه النصوص في عمقها.

قراءة في مفاهيم السيميائيات السردية عند الباحثين العرب

لقد عرفت الساحة النقدية العربية في الفترة الحديثة توجها نقديا مخالفا وذلك بظهور المنهج السيميائي وانتشار مبادئه وأسسه الإجرائية، وقد كانت الحركة السيميائية دفعا قويا حرّك الفعل النقدي العربي وبهذا تزعزعت المسلّمات النقدية التقليدية المعروفة وكان ذلك

بظهور بعض الأبحاث التي عملت على التعريف بهذه المدرسة والكشف عن خلفياتها الفلسفية وبسط أسسها للقارئ العربي.

على الرغم من أن" المتتبع للحركة السيميائية في العالم العربي يدرك أنها ظهرت في ظروف تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن تلك التي رافقت ولادتها في البحوث الأوروبية وهو اختلاف نلمسه على جميع الأصعدة. ذلك أن ولادتها في البحوث العربية تمّت عبر عملية قيصرية، وفي جو مشحون بالرفض في أغلب الأحيان، والاتهامات المجانية لمن تبنوا هذا التيار ومكتنف بهيمنة التوجه الكلاسيكي في الممارسة النقدية المنجزة بمنأى عن الأعمال الجماعية الضامنة لمصداقية البحث العلمي. وحتى المؤسسة العلمية التي تحولت فيها المعرفة إلى بضاعة لم تكن مهيأة لتلقي القيم الجديدة التي يحملها الخطاب النقدي الوافد من الغرب "[1]

ويعدّ هذا الارتباك والرفض الملاحظ في ذهن القارئ العربي أمرا طبيعيا، إذ ليس من السهل مسح المسلمات النقدية الراسخة في الأذهان مرة واحدة واستبدالها بمشروع نقدي مخالف تماما كما" أنّ المتصفح للمنشورات الصادرة في المغرب أو في بعض الأقطار العربية الأخرى يدرك بشكل جلي هذا القصور، فغالبا ما تكون هذه المنشورات عبارة عن ترجمة لمقالات أو أجزاء من كتب وأحيانا تعاليق مختصرة عن نظرية أو مجموعة من النظريات... فتظل ناقصة(ومضللة أحيانا) لأنّها تقدم مفصولة عن أسسها الابستمولوجية، وعن المناخ الذي ولدت فيه، الشئ الذي يجعل القارئ عاجزا في أغلب الأحيان عن إدراك الفروقات والاختلافات بين هذه النظرية أو تلك، بين هذا المفهوم أو ذاك. كما لا يدرك كيف أنّ المصطلح الواحد قد ينتمي إلى مدارس متعددة، حاملا مضامين ودلالات متنوعة "[2]

ومن هذا المنطلق فقد كانت أعمال الباحثين العرب المختلفة السبيل الوحيد لتبسيط مفاهيم المدرسة السيميائية في الأذهان وتفعيلها على مستوى التطبيق، وقد لعبت الترجمة دورا كبيرا في توصيل أسس ومبادئ هذه المدرسة إلى المتلقي رغم كل الصعوبات والاضطرابات التي تطرحها.

وتعد أبحاث سعيد بنكراد أحسن مثال على ذلك" لما تتسم به دقة وتمثّل واضح للسيميائية الغريماسية في كتابه" السيميائيات السردية" الذي يعدّ انجازا مهما في الدراسات

السيميائية العربية، وتكمن أهمية هذا البحث في بساطة خطابه النقدي ومرونته وأصالته ووضوح مضمونه الناجم عن تمثله لهذا التيار في أصوله ومقاصده المنهجية. إنّ هذه الدراسة التي تشتمل على المبادئ الأولية للنظرية السيميائية تندرج ضمن الممارسات النقدية الساعية إلى فضح مكامن السقوط في النظام النقدي التقليدي المبني أساسا على التقيّد بالمسلمات وإصدار الأحكام المسبقة ولئن كانت هذه الممارسات تشكل قفزة نوعية في الدراسات النقدية العربيةّ"[3]

لقد عمد الباحث سعيد بنكراد في كتابه" مدخل إلى السيميائية السردية" الى التعريف بنظرية غريماس واستعراض أهم مبادئها واستقراء أسسها، فهي نظرية تتميز عن باقي النظريات الأخرى في المجال السردي بخاصية أساسية يمكن تحديدها في" مشكلة المعنى" " فمقاربة نص ما لا يكون لها من معنى إلاّ في حدود طرحها للمعنى كهدف وغاية لأي تحليل. فالتعريف عن المعنى وتحديد حجمه لا ينفصل عن المكانيزمات التي أنتجته. من هنا فالتحليل لا يعني تعيين المعنى بشكل حدسي دون تحديد لسيرورة نموه وموته"[4] بهذا تتلخص نظرية غريماس في لبّها وعمق تشكلها في موضوعها الأساس وهو المعنى وكيفية إنتاجه والشروط المنتجة له وتحديد حجمه وطبيعته، وعلى هذا الأساس فهدف أي تحليل هو البحث عن المعنى وترويضه وإرجاعه إلى العناصر التي أنتجته.

كما يشير إلى شمولية نظرية غريماس في التصور أي قدرتها على التحاور مع عناصر معرفية تنتمي إلى مجالات مختلفة، وكذا قدرتها على استيعاب عناصر تنتمي إلى نظريات سردية أخرى وهذا يكشف عن نواقصها وعن الثغرات الموجودة في داخلها من جهة، كما تقدم تبريرا لقصور النظريات الأخرى من جهة ثانية. وفي كلتا الحالتين تؤكد على ضرورة التكامل بين كل النظريات.."[5] ونسجل هنا هذه الروح الإنتقادية التي تميّز الباحث في عرضه لهذه النظرية، ولا تتوقف مهمته في مجرد استعراض لأسس السيميائية الغريماسية.

وهكذا وبعد استعراض الأسس المعرفية التي قامت عليها نظرية غريماس والعودة إلى الروافد التي ساهمت في بلورتها(كالإرث الشكلاني بروب، وكلود ليفي شتراوس...) عمل الباحث بنكراد على رسم هيكلها النظري مثلما جاء في أبحاث الناقد غريماس وقد أشار إلى أنّ هدفه ليس البحث في الأصول وتحديد موقع كل إرث داخل نظرية غريماس، فتلك

مهمة أخرى ليس مجالها هنا، و إنّما ما سنقوم به- مثلما يذهب الباحث- هو" عرض شامل وواف عن هذه النظرية وتحديد موقعها من التيارات المكونة للسرديات المعاصرة، كما سنعمل على بيان مواقع قوتها وضعفه وتحديد الأسس المعرفية التي قامت عليها..."[6]

لقد عمد الباحث إلى تتبع أسس نظرية غريماس وشرحها، بحيث أشار في البداية إلى ملاحظة انتهى إليها غريماس ومفادها" أنّ الذهن البشري ينطلق من عناصر بسيطة لكي يصل إلى خلق موضوعات ثقافية، ويسلك في هذا سبيلا معقدا يواجه فيه إرغامات عليه أن يتجاوزها، واختيارات عليه أن يحدد موقعه ضمنها"[7]

ومن هذا المنطلق وضع غريماس تقسيمه المشهور للسيميائيات السردية إلى التنظيم العميق والتنظيم السطحي وهذا انطلاقا من مبدأ أنّه" إذا كانت البشرية جمعاء تشترك في مجموعة من المضامين(المدركة كثنائيات) فإن كل مجتمع ينظم مضامينه بطرق مختلفة، وسيصبح تحقق البنية المجردة، وفق هذا التصور تخصيصا لبنيات هذا المجتمع وكشف عن خصوصياته. فلا يكفي إذا تحديد سلسلة الثنائيات العامة، التي قد تكون لها القدرة على مدنا بمعرفة حول اشتغال سلوك اجتماعي ما، إلاّ أنّها عاجزة على مدّنا بأدوات التمييز بين هذه المجموعة البشرية أو تلك. وعليه فإن التسليم بوجود نموذج عام منظم للسلوك الإنساني، إنّ كان قاعدة صلبة وجسرا نحو الكشف عن خصوصية مجتمع ما، يجب أن يكون متبوعا بإبراز نمط تحققه أو تحققاته، ولعل هذا ما يسمح لنا بالحديث عن خصوصية النص وعن تمييزه عن النصوص الأخرى"[8] وعلى ضوء هذا التحديد سنكون أمام تنظيمين مختلفين لنفس الكون الدلالي.

يطرح التنظيم العميق داخله المعنم بصفته العنصر المميّز المسؤول عن أي تمفصل دلالي وسيكون النموذج التكويني أو المربع السيميائي أول أشكال التنظيم الدلالي باعتباره تأليفا تقابليا لمجموعة من القيم المضمونية، وهذه البنية الدلالية البسيطة تحتوي على قدرة قابلة لتوليد سلسلة لا منتهية من العلاقات الداخلية وبعبارة أخرى فإنّها تمتلك القدرة على جعل المعنى قادرا على التدليل.

وإذا سلمنا بأنّ كل موضوع سيميائي يتحدد من خلال نمط إنتاجه، فإن المكونات المتضمنة في هذه السيرورة تتمفصل وفق مسار يقود من العنصر الأكثر تجريدا إلى العنصر

الأكثر محسوسية[9] وعندما نتتبع عملية الإثبات والنفي الخاصة بالمضامين فتشير إلى أولى العلاقات التحويلية الممكن انجازها وطرحها على شكل ملفوظ سردي بوجهيه الانفصالي والاتصالي حينها ستظهر العلاقات الثلاث: التضاد، التناقض، والاقتضاء، كتحولات وستقوم هذه التحولات على نفي مضمون ما، وإثبات آخر وسيطلق الانفصال على تحول النفي وسيطلق اسم الاتصال على تحول الإثبات[10] ويفسر الباحث بنكراد هذه المسألة بمقولة مجرده الاستعباد التي يستخرج منها جميع الإمكانيات الفعلية التي تحتويها(مستعبد(م) حرّ، استعباد(م) حرية..)

أما التنظيم السطحي فيتحدد من خلال النموذج العاملي وهو أساس تشكل النص كأحداث أي كصيغة تصورية وبعبارة أخرى إنّه يمثل شكلا قانونيا لتنظيم النشاط الإنساني أو هو النشاط الإنساني مكثفا في ترسيمة ثابتة رغم تغير عناصر تظهرها، فهو" يجمع داخله كل العوامل المحددة للفعل الإنساني: هدف للفعل، ما يدفع الى الفعل، المستفيد من الفعل، الرغبة في الفعل، المساعد على الفعل، والمعيق لهذا الفعل"[11]

وإذا كان النموذج العاملي في نظر غريماس هو نتاج عملية قلب للعلاقات المشكلة للنموذج التكويني(المربع السيميائي)، فإنّ أصوله وجذوره تعود إلى أبحاث ماضية وهي نتائج أبحاث بروب، ونموذج سوريو ونموذج تنيير.

يطوّر غريماس نموذجه العاملي في ضوء الدراسات الشكلانية التي درست الحكاية العجيبة، وبالخصوص أبحاث فلاديمير بروب، فقد ذهب إلى أنّ هذا الباحث أوضح مفهوم العوامل دون أن يضع المصطلح نفسه، خاصة عندما وضع الوظائف المتعددة وحددها في سبع شخصيات أساسية وقد اعتبرها غريماس بمثابة عوامل. ويقول:" إنّ العوامل تمتلك إذن قانونا ميتا لسانيا بالنسبة للممثلين، إنّها تفترض بالإضافة إلى ذلك التحليل الوظيفي، أي التكوين التام لدوائر نشاطها"[12]

بهذا يعمد غريماس انطلاقا من النماذج الثلاثة(بروب،تنيير، سوريو) في تنوعها إلى صياغة الصورة النهائية للنموذج العاملي ويتكون من ست عوامل تأتلف في ثلاث علاقات تشكل محاور هي كالتالي:

محور الرغبة:

هو المحور الذي يربط بين الذات والموضوع، وتشكل الفئة العاملية ذات/ موضوع العمود الفقري داخل النموذج العاملي، إنّها مصدر للفعل ونهاية له، فهي مصدر الإرسال لأجل إثبات أو إلغاء حالة أو خلق حالة جديدة. ولا تتحدد الذات الفاعلة إلاّ بعد دخولها في علاقة مع الموضوع مثلما لا يتحدد هذا الأخير إلاّ في علاقته بالذات و يمكن إعتبار الموضوع كموقع إشكالي يكتنفه نوع من الغموض نتيجة انتمائه إلى محور الرغبة ومحور الابلاغ في الوقت نفسه.

محور الإبلاغ:

هو عنصر الربط بين المرسل والمرسل إليه، أي من دافع على الفعل ومن مستفيد منه وهما يقعان على المستوى الذهني للفعل، ولا يتحددان إلاّ من خلال موقعهما من حالتي البدء و النهاية كجزأين سرديين مؤطرين لمجموع التحولات المسجلة داخل النص السردي.

محور الصراع:

هو ما يجمع بين المعيق والمساعد ويحدد" غريماس" هذه الفئة الثالثة المشكلة للنموذج العاملي في ما يسميه بالصراع، فالبطل في الحكاية الشعبية يقوم برحلة بحث عن موضوع قيمة ويصادف في طريقه أشخاصا أو حيوانات يقومون بمساعدته لتحقيق موضوعه أو معيقين يحولون دون وصوله لتحقيق هدفه النهائي.

وإذا كانت هذه الصورة المبسطة التي تصوّرها الحكاية الشعبية للمساعد والمعيق، فإن الأمور تتعقد أكثر مع النصوص الإبداعية المعاصرة.

يضعنا هذا النموذج بعلاقاته الثلاث أمام العلاقات المشكلة لأي نشاط إنساني كيفما كانت طبيعته، وبعبارة أخرى فإنّ هذا النموذج يشكل بطريقة ما تعريفا لمعنى الحياة.

ودرس غريماس في التنظيم السطحي أيضا البرنامج السردي وهو صيغة تركيبية منظمة للفعل الإنساني بشكل صريح أو ضمني وستكون الصيغة التركيبية لهذا البرنامج هي حالة انفصال تقود إلى حالة اتصال أو العكس.

هكذا فقد عمل الباحث سعيد بنكراد على الوقوف على أهم الأسس الإجرائية التي وضعها غريماس في نظريته وشرح العناصر التي تكوّنها وربطها بمنطلقاتها الأولى وجذورها

الأصلية، وقد سجل الباحث على نفسه النقص الفادح الذي وقع فيه وهو عدم تدعيم بحثه بنصوص تطبيقية توضح وتبسط المسائل النظرية المعقدة على القارئ.

كما ساهم الباحث محمد الناصر العجيمي في بحثه الموسوم" في الخطاب السردي - نظرية قريماس-" في ترجمة بعض أسس نظرية غريماس إلى القارئ العربي وتفعيل أسسها الإجرائية على النصوص الإبداعية العربية، حيث قام بالوقوف عند أهم آلياتها الإجرائية فقط،- وهذا خلافا لما رأيناه عند سعيد بنكراد الذي كانت دراسته مفصلة ووافيه فقد تركز عمله في البداية على دراسة المستوى السطحي للخطاب وذلك بدراسة النموذج العاملي من حيث هو نظام ثابت يقوم على ثلاثة أزواج من العوامل هي: المؤتي/ المؤتي إليه، والفاعل/ الموضوع، والمساعد/ المعارض.." وعاد بالتفصيل إلى العلاقات التي تجمع بين هذه العوامل مدعما في كل مرة شروحاته النظرية بأمثلة تطبيقية من نص" الأرنب والفيّلة"، فالعلاقة بين الفاعل والموضوع هي بؤرة النموذج العاملي و" الصلة بين العاملين تعالقية وإنّ أحدهما موجود دلاليا للآخر وبه، وليس من الضروري أن يكون الفاعل كائنا إنسانيا كما لا يتحتم أن يكون الموضوع شيئا جامدا"[13]

وتنتظم الوحدتان العاملتان في سياق العلاقة بين الفاعل والموضوع وتتحدد وظيفة المساعد في تقديم المساعدة للذات الفاعلة من أجل تحقيق مشروعه العملي، أما المعارض فيقف عائقا دون تحقيق الفاعل لموضوعه.

أما العلاقة بين" المؤتي" و" المؤتي إليه" فيوحي حضورهما في الخطاب السردي - حسب غريماس-" بوجود عالم مؤسس على منظومة من القيم يحكم بمقتضاها على الأفعال سلبا أو إيجابا فتحلّ في مرتبة المحرّم أو المباح أو الواجب.. والوظيفة الموكولة إلى المؤتي تتمثل في المحافظة على هذه القيم وصيانتها وضمان استمرارها وذلك بتبليغها إلى المؤتى إليه وإملائها عليه"[14]

كما درس محمد العجيمي الأنموذج العاملي في حركيته ويقصد به البرنامج السردي، إذ أنّ السرد يقوم في أساسه على التحوّل من طور إلى طور والانتقال من حال الى حال بحيث يكون التحويل اتصالي يتجسد في صورة الامتلاك وتحويل انفصالي نتمثله في صورة الاستلاب وقد تتبع أنواع هذه التحويلات وجزئياتها من خلال نماذج تمثيلية من نص

" الأرنب وألفيلة ودرس المكيّفات المساعدة في انجاز الفاعل لفعله وهي: الشعور بوجوب الفعل، والرغبة في الفعل والقدرة على الفعل.

وبحث في إطار دراسته للمستوى السطحي أيضا عنصر المكون التصويري، حيث يصبح الخطاب تصويريا عندما يشحن الموضوع بشحنة دلالية تخوّل للذات أن تدركه من حيث هو صورة تمثيلية.

وفي دراسته للمستوى العميق شرح الباحث عنصر" المعنم" كونه الوحدة الدلالية الصغرى، حيث يكتسب دلالته من علاقته مع وحدات معنمية أخرى تتشكل ثنائيات معنمية مبنية على التقابل يجمعها عنصر ثالث هو المحور الدلالي.

فالمحور الدلالي الجامع للثنائية الدلالية: الحياة- الموت مثلا هو الوجود، وهذا ما وضّحه غريماس في المربع الدلالي، حيث عمل على تحديد ميكانيزماته واستقراء حركية المعنى وتحوّله من خلال نوعية العلاقات التي تجمع أركانه وهي: التراتبية، والتناقض فاحدى الوحدتين تنفي الأخرى والعلاقة الضدية يقابل أحدهما الآخر ويعاكسه وبهذا يتم اكتشاف الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية.

هكذا استطاع الباحث محمد الناصر العجيمي تقديم أهم المبادئ المؤسسة لنظرية غريماس والتركيز بالخصوص على المستويين السطحي والعميق في الخطاب السردي متجاوزا بذلك كل العناصر الإجرائية المثيرة للجدل والغموض واكتفى في عرضه بالشرح الدقيق للنموذج العاملي في ثباته وحركته، والمربع الدلالي.

وقد خلص رغم هذا الاختصار الشديد في الطرح إلى الإشادة بالنظرية وبطاقتها الإجرائية الفعّالة، وإمكانية استثمارها في دراسة نصوص متنوعة مختلفة. وختم بحثه بدراسة تطبيقية لنص الأرانب والفيلة من كتاب كليلة ودمنة محاولا تجسيد هذا الأساس النظري في هذا النص.

واختصر الباحث" رشيد بن مالك" الحديث في نظرية غريماس في كتابه:" البنية السردية في النظرية السيميائية على المكون السردي والآليات التي تحكمه والقواعد التي تضبطه بدء من التحديد النظري للبرنامج السردي الذي يستند إلى تحليل مكونات البنية السردية وفحص العلاقات الموجودة بين الفاعل والموضوع والتي ترتهن في وجودها إلى مجموعة

من الحالات والتحويلات التي تكون في تواليها نظاما قادرا على كشف بنية المكون السردي"[15]

وقد فصّل البحث في مفهوم الحالة والتحويل التي تربط الفاعل بالموضوع، واستنادا إلى كتاب غريماس" المعنى" يستعرض الباحث جميع حالات التحوّل وجزئياتها الدقيقة بين الفاعل وموضوعه، وتكتسي العلاقة: فاعل/ موضوع أهمية بالغة، بحيث تنبني عليها طموحات الفاعل، وفي إطارها تتوزع الأدوار، وعلى متنها تتولد الرغبات ويشتدّ التنافس والصراع. وواضح من هذا الكلام أنّ القيمة لا تتحقق في تفردها ولا توظف لذاتها بل تستمد وجودها من هذه الرغبة الدفينة التي تملك كيان الفاعل وتقوده إلى الصراع من أجلها وتملكها. ومن هنا جاء تعريف الموضوع بوصفه حيزا توظف فيه قيم تقترن بالفاعل أو تنفصل عنه"[16]

وبهذا يستعرض بالتحليل ميكانيزمات البرنامج السردي الذي ينبني على سلسلة من الحالات والتحويلات المنتظمة على أساس العلاقة الرابطة بين الفاعل والموضوع وتحويلها، وإنّ كل تحويل وصلي يفضي حتما إلى إحداث تحويل فصلي للفاعل المقابل وقد يتحول البرنامج السردي البسيط إلى برنامج معقد.

وتستمد هذه البرامج السردية حركيتها من طاقات يملكها الفاعل تنبني أساسا على رسم سردي ينظم تعاقب الملفوظات في شكل أطوار أربعة متماسكة البناء ومرتبطة فيما بينها ارتباطا وثيقا خاضعا لمبدأ التدرج والافتراضات المنطقية: التحريك، الكفاءة، الأداء والتقويم.

يتبين لنا إذن من خلال الدراسة أنّ رشيد بن مالك لم يخص الحديث عن السيميائيات السردية عند غريماس فقط بل عمل على قراءة بعض التنظيرات السيميائية لباحثين آخرين وترجمة نصوصهم.

ونشير الى نوع آخر من البحث عند العرب الذي ذهب بعيدا وانتقل في السيميائيات الغريماسية من النظرية الى التطبيق وتجاوز النقل والتعريف التنظيري للمنظومة الإصطلاحية لنظرية غريماس وهذا ما لاحظناه عند الباحث" عبد المجيد نوسي" في عمله المعنون:(التحليل السيميائي للخطاب الروائي)*، حيث عمل على تطبيق المفاهيم الإجرائية للمنهج السيميائي على رواية" اللجنة" للروائي صنع الله ابراهيم الذي تميّز مساره بكتابة نصوص شكّلت لحظات أساسية في تاريخ الرواية العربية والمصرية من حيث طرح

إشكال الكتابة والبحث في عناصر البناء والاشتغال بشكل تنصهر فيه مكونات الخطاب الروائي من لغة سرد وعناصر الزمان والمكان والشخصيات لتأسيس فضاء متخيّل.

ويستند هذا الباحث في دراسته التطبيقية على أعمال المدرسة الفرنسية وخصوصا على أعمال غريماس ومثلما يشير أنّ عمله لن يتوقف عند الاستثمار الانتقائي لمستوى من مستوياتها مثل المستوى العميق أو المستوى العاملي أو لمفهوم من مفاهيمها الإجرائية مثل مفهوم المربع السيميائي أو التشاكل، ولكنه سيستثمر معطيات النظرية في تعالق كل مستوياتها، بدءا من المكون العميق الى البنية الأولية للدلالة، الى البنية التركيبية.

نلاحظ من خلال تتبعنا لهذه الدراسة أنّ الباحث لم يتقيد بالأسس الإجرائية التي وضعها غريماس بل استثمر كل ما أنتجته المدرسة الفرنسية من أبحاث، واللافت للانتباه أن المؤلف يدعّم عمله التطبيقي بأقوال تنظيرية لأصحابها من أجل التوضيح وربط القارئ بالأصول، ولكنه يسقط في الكثير من الأحيان في التنظير على حساب التطبيق. وما يثير الاضطراب في ذهن القارئ هو توظيفه في الكثير من المرات لمصطلحات أخرى غير التي عرفناها مع الساحة النقدية، ويظهر التعقيد أكثر عندما دمج بين كل ما أنتجته المدرسة الفرنسية بشقيها اللساني والأدبي.

فعل الترجمة والمصطلح السيميائي عند الباحثين العرب

انطلاقا من قراءتنا المفصلة لهذه الأبحاث في السيميائيات السردية الغريماسية نصل إلى نتيجة مفادها عدم توحيد الباحثين للمنظومة الاصطلاحية المستعملة بحيث وضع سعيد بنكراد مصطلحات خاصة به فيترجم مثلا مصطلح" الفاعل" الذي ترجمه" العجيمي بـ" العامل" والمربع السيميائي" بـ" النموذج التكويني"

وفي طبعة أخرى لنفس العمل(منشورات الزمن) يوظّف كلمة " النموذج التأسيسي" وبالمقابل يترجمه العجيمي بـ" المربع الدلالي"، كذلك في ترجمته لعناصر النموذج العاملي وظّف العجيمي مقابل المرسل والمرسل إليه"" المؤتي والمؤتي إليه ويصبح هذا الاختلاف في ترجمة المفهوم الواحد إلى عدة مصطلحات هو بمثابة الإعاقة التي ستبعد القارئ العربي من هذه النظرية.

كما أنّ هناك الكثير من المفاهيم المثيرة للجدل في هذه النظرية بين دارسيها فمفهوم" الفاعل"

مثلا يصنّف ضمن المحور السردي في المستوى السطحي باعتباره وحدة تركيبية نحوية، إلاّ أننا نجده مع ذلك لا يكتسب صفته تلك إلاّ بتحميله دلالة الفاعلية الكامنة بدورها في المستوى العميق، والأمر نفسه ينطبق على مفهوم" المكون التصويري".

نسجل كذلك أثناء تفحصنا لهذه النماذج من الأبحاث السيميائية العربية أنّنا لا يمكن تصنيفها في نفس المرتبة، بحيث نلتمس في دراسة سعيد بنكراد الكثير من التعمق والإلمام الكبير بجميع عناصر نظرية غريماس على الرغم من أنّ الإحاطة الشاملة بهذه الأخيرة سواء أكان ذلك في أصولها العلمية أم في مفاهيمها الإجرائية وحدود هذه الأسس ليس بالأمر السهل، فشساعة هذه النظرية ونزعتها الشمولية وتشعّب مصادرها المعرفية والفلسفية وتداخلها واختلاف منابعها التي استندت إليها في بناء جهازها المفهومي، يعدّ من أكبر العقبات التي تحول دون الإمساك بروح هذا المشروع والقبض على كل جوانبه وجزئياته، بالإضافة إلى هذه الصعوبات نشير الى ذلك الجدل الذي كثيرا ما يثار حول بعض طروحات هذا المشروع ومفاهيمه، بل وجدوى الآفاق التي فتحها أو يمكن أن يفتحها في وجه دارسي النصوص الأدبية المختلفة.

بينما تأتي دراسة العجيمي ورشيد بن مالك جزئية غير ملمّة بكل أسس ومبادئ سيميائيات غريماس، على الرغم من الوضوح الذي تميزا به في طرحهما، فقد اعتمد بنكراد في بحثه لغة التعقيد التي لا تصل الملتقي بكل سهولة، حيث لم يدعم هذه الأسس النظرية البحتة بنماذج تطبيقية توضيحية مثلما فعل العجيمي الذي كان عمله بسيطا واضحا مدعّما بمقاطع نصية تطبيقية مستمدة من نص" الأرانب والفيلة"، بحيث عمل على تتبع مقاطع هذه الحكاية الشعبية بالتحليل والوقوف عند برنامجها السردي البسيط السهل التحديد الذي يتمحور في موضوع البحث عن الماء وتنجح الذات الفاعلة(فيروز) بذكائها تحقيق الهدف والاتصال بالموضوع، مثلما استوقفته في الحكاية أيضا الأقطاب الدلالية ودرس الأقطاب الدلالية لتنعكس البنية الداخلية العميقة للنص التي تنتظم في ثنائيات العطش والارتواء- خوف الأرانب من الهلاك تحت أقدام الفيلة.

لكن ينبغي أن نشير من خلال هذه الدراسة التطبيقية أنّ المسألة أعقد بكثير من هذا واختيار الباحث لهذا النص قد يصلح للقارئ المبتدئ لشرح المفاهيم الأولية وتبسيطها

في ذهنه بينما المشروع السيميائي لغريماس أعمق بكثير في محاولته تبيان إستراتيجيات بناء المعنى في النصوص السردية المختلفة، بحيث يستمد النص السردي تماسكه الدلالي من وجود بنية عميقة موظّفة كبنية كبرى للنص وكذا من وجود منطق سردي ينظم العلاقات بين الوحدات السردية كما تبدو من خلال الخطاب، وينبغي حسب غريماس التسليم بفكرة مفادها" أنه بإمكان البنى السردية أن تظهر في مواقع أخرى خارج نطاق التجليات الدلالية التي تتمّ في اللغات الطبيعية: في اللغة السينمائية والخيالية وفي الرسم التشكيلي الخ.."[17]

كما نصل إلى أنّ الباحث العربي في مجال السيميائيات توقف دوره على نقل أسس هذه النظريات المختلفة التي ينتجها الغرب ولم نسجل في أعمالهم أراء نقدية معارضة أو مناقشة لهذه المفاهيم، فاقتصر الأمر على الفهم و الترجمة وهذا غير منطقي تماما، إذ ما يخلق في ثقافة فكرية وفلسفية وايديولوجية معينة لا يصلح دائما لثقافة فكرية أخرى بطريقة مطابقة، ولا يقتصر دور المترجم على التحكم في القواعد اللغوية للنص الأصلي ولكنه ينبغي أن يضع في اهتماماته أثناء فعل الترجمة العناصر الثقافية بالمعنى الواسع للكلمة، بحيث إنّ الترجمة لا تتم بين لغتين وإنّما بين حضارتين وثقافيتين مختلفتين لهذا تعتبر كل ترجمة سليمة هي بمثابة مساهمة نقدية في فهم النص الأصلي.

لقد لفعل الترجمة لسيميائيات غريماس على الخصوص الأثر السلبي الى حدّ بعيد في الوطن العربي أوقع القارئ العربي في اضطراب وحيرة أمام كثرة المصطلحات وتشعّبها وتعقيد المفاهيم وقلة النماذج التطبيقية التي تبيّن مدى نجاع هذه الآليات الإجرائية على مستوى النصوص الإبداعية العربية خاصة، ويمكن إرجاع هذا الإشكال الى تشتت جهود الباحثين وعدم توحيد نتائج البحوث، ولا توجد مؤسسة أو مجلس لمراقبة والنظر في هذه الترجمات وتوحيد المصطلحات وتظهر هذه الأبحاث في الساحة النقدية منفردة شخصية خاصة بكل باحث وهذا ما خلق عدد هائل من المصطلحات ولا يجد القارئ نفسه في هذا العالم الذي تشبه الفوضى ولا يعرف ماذا يختار وأين الصحيح من الأصح وهذا ما عقّد هذه النظرية أكثر عند الباحث العربي..

لكن علينا أن نسجل في الأخير وننوّه بمجهودات الباحثين العرب في هذا المجال ومساهمتهم في نقل هذه النظرية السيميائية بكل تشعباتها وتعقيداتها، وخاصة نظرية غريماس

التي لم يعمل صاحبها على جمع أسسها في كتاب موحّد بل تمتد نظريته على مجموعة هامة من الدراسات المنشورة في مؤلفات مستقلة أو ضمن مجلات مختصة. وقد استثمر الدارس العربي بعد كل هذه السنوات المفاهيم السيميائية المختلفة واستطاع أن ينتقل من النظرية إلى التطبيق وتتجاوب هذه الآليات الإجرائية مع النصوص الإبداعية العربية المختلفة على الرغم من اختلاف الخلفية الفلسفية والفكرية التي أسست لظهورها والثقافة الفكرية التي أطّرت هذه النصوص الإبداعية في عمقها، وهذا ما يحملنا إلى القول إنّ الفكر الإنساني موحّد في أساسه العميق.

الهـوامـش:

1: رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، دار الحكمة،(د ط) الجزائر، 2001، ص: 56

2: سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، منشورات الاختلاف، الطبعة الثانية، الجزائر، 2003، ص: 5

3: رشيد بن مالك، البنية السردية، ص: 55

4: سعيد بنكراد، مدخل إلى السيميائية السردية، ص: 7

5: المرجع نفسه، ص: 8

6: المرجع نفسه، ص: 28

7: المرجع نفسه، ص: 29

8: المرجع نفسه، ص: 31

9: Greimas, courtes: sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, hachette université, paris 1979

10: سعيد بنكراد، مدخل الى السيميائية السردية، ص: 37

11: سعيد بنكراد، السيميائيات السردية- مدخل نظري- منشورات الزمن، المغرب، 2001، ص: 71

12: Greimas: sémantique structurale, recherche de méthode, larousse, 1966, p: 84-85

13: محمد الناصر العجيمي، في الخطاب السردي نظرية قريماس، عالم الكتاب، تونس 2006، ص: 34

14: المرجع نفسه، ص: 36

15: رشيد بن مالك، البنية السردية في النظرية السيميائية، ص: 8

16: المرجع نفسه، ص: 15

* يراجع عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي،- البنيات الخطابية- التركيب

- الدلالة-، دار النشر المدارس، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، المغرب، 2002

17: يراجع أج. غريماس، في المعنى(دراسات سيميائية)، تعريب نجيب غزاوي، مطبعة الحداد، اللاذقية، سوريا 2000، ص: 12